

الإسلام والعولمة مقاربة أنثروبولوجية تاريخية

الدكتورة داني رشيد
جامعة تلمسان

مقدمة

أقول ابتداءً إن العالم يشهد مجموعة من التحولات المفزعة ، هذا الفرع يتجسد في عدة مظاهر من أهمها: إنهار الكتلة الشرقية وأحادية القطبية والهيمنة الرأسمالية على كافة مناحي الحياة ، وفي هذا الخضم تخمر السؤال التالي في ذهني: في ظل عولمة متوحشة تكتسح الأوطان دون إستئذان وفي زخم هذا الإكتساح هل يتموقع الإسلام زمكانيا أم يتفوق ميدانيا ؟
ذلك الدين صاحب الرسالة العالمية الخالدة السرمدية ، ماهي طبيعة علاقته بالعولمة ؟ أهى علاقة إنصهار أم علاقة إندثار؟
هذا ما سأحاول إمطة اللثام عنه في هذه الورقة البحثية .

1- تعريف العولمة :

العولمة في اللغة : مأخوذة من التعولم والعالمية والعالم¹ وتعني تقييم الشيء وتوسيع دائرته ودائرة تأثيره.

وفي الإصطلاح: اصطباغ عالم الأرض بصبغة واحدة شاملة بجميع أقوامها وكل من يعيش فيها وتوحيد أنشطتها الإقتصادية والإجتماعية والفكرية من غير إعتبار لإختلاف الأديان والثقافات والجنسيات والأعراق. إختلفت الآراء حول مفهوم العولمة كما اختلفت حول² مفهوم النظام العالمي الجديد ليس في العالم العربي فحسب بل حتى في المجتمعات الغربية الذي أنتجته ومعظم التعاريف التي قدمت للعولمة يغلب عليها الطابع الإقتصادي وذلك لأن مفهوم العولمة من نتاج الرأسمالية وأثارها أوضح ما تكون في مجال الإقتصاد ، هذا بالإضافة إلى أهمية الإقتصاد وخطورة الدور المناط به³ ولأنه الهم الأكبر للحضارة الغربية الصانعة لمصطلح العولمة ومن هذا المنطلق يمكن تعريف العولمة بأنها حركة تستهدف تحطيم الحدود الجغرافية والجمركية وتسهيل نقل الرأسمالية عبر العالم كله كسوق كونية .

ويعرفها صندوق النقد الدولي أحد المؤسسات الدولية التي تتبنى العولمة بأنها التعاون الإقتصادي

المتنامي لمجموع دول العالم والذي يحتمه إزدياد حجم التعامل بالسلع وتنوعها عبر الحدود إضافة إلى تدفق رؤوس الأموال الدولية والإنتشار المتسارع للتقنية في أرجاء العالم كله.

وفي محاولة لتحديد مكونات تعريف العولمة يقول الأستاذ السيد ياسين⁴ أن تعريف العولمة لابد وأن يشتمل على ثلاث عمليات تتعلق بانتشار المعلومات وتذويب الحدود وزيادة معادلة التشابه بين الجماعات والمؤسسات والمجتمعات وهذا يصبح جوهر عملية العولمة سهولة حركة الناس والمعلومات والسلع بين الدول على نطاق كوني.

وبلاحظ أن هذا التعريف أعطى العولمة صفة الشمول ولم يقصرها على الجانب السياسي فيقول⁵ هي حقبة التحول الرأسمالي العميق للإنسانية جمعاء في ظل هيمنة المركز وتحت سيطرتها.

أما الدكتور محمد عابد الجابري يؤكد بأن العولمة ليست مجرد آلية من آليات التطور الرأسمالي ، بل أيضا وبالدرجة الأولى إيديولوجيا تعكس إدارة الهيمنة على العالم⁶.

أما الدكتور عبد الله التركي يعرف العولمة على أنها حركة تهدف إلى تعميم تطبيق أمر ما على العالم كله⁷ ويعرفها الشيخ الدكتور يوسف القرضاوي بقوله العولمة في حقيقتها وأهدافها وطرائقها اليوم أنها هي الإستعمار بلون جديد ، وبإسم جديد وهي بعبارة صريحة أمركة العالم⁸.

أما الدكتور صبري إسماعيل فيرى أن العولمة ظاهرة تتداخل فيها أمور الإقتصاد والسياسة والثقافة والإجتماع والسلوك يكون الإنتماء فيها للعالم كله عبر الحدود السياسية الدولية وتحدث فيها تحولات على مختلف الأصعدة تؤثر على حياة الإنسان في كوكب الأرض أينما كان⁹.

ومن خلال التعريفات التي تعرضنا لها يتضح ان العولمة واقع يثمر بتزايد الارتباط والإعتماد المتبادل بين المجتمعات البشرية في المجالات الإقتصادية والثقافية والسياسية والإعلامية وغيرها من المجالات ، ساهمت في ترسيخها كتوجه عالمي ثورة التكنولوجيا في مجال المعلومات والتواصل التي منحت البشرية فرصا وفوائد كبيرة في نفس الوقت تتضمن أخطارا لا يستهان بها وأن تعاريف العولمة لتكاد تنتهي وهي مختلفة باختلاف إهتمام الباحث ونظرتة إلى الحضارة الغربية ومجريات الأمور في الواقع¹⁰.

2- عناصر العولمة:

أ- تعميم الرأسمالية:

إن تغلب الرأسمالية على الشيوعية جعلها تعمم مبادئها على كل المجتمعات الأخرى فأصبحت قيم الوحدة والتجارة الحرة والإنتفاخ الإقتصادي والتبادل التجاري وإتصال السلع ورؤوس الأموال وتقنيات الإنتاج والأشخاص والمعلومات هي القيم الرائجة وتقود ذلك أمريكا وتفرضها عن طريق

مؤسسات البنك الدولي ومؤسسة النقد الدولي وغيرها من المؤسسات العالمية التابعة للأمم المتحدة وعن طريق الإتفاقات العالمية التي تقرأها تلك المؤسسات كإتفاقية الجات¹¹ وغيرها.

ب- القطب الواحد:

تفردت أمريكا بقيادة العالم منذ سقوط الإتحاد السوفيتي وتفكيك منظومته الدولية ومن الجدير بالذكر أنه لم تبلغ إمبراطورية في التاريخ بقوة أمريكا العسكرية والإقتصادية مما جعل هذا التفرد خطير على الآخرين في كل المجالات السياسية والإقتصادية والثقافية والإجتماعية.

ج- ثورة المعلومات:

مرت البشرية بعدة ثورات علمية منها ثورة البخار والكهرباء¹² والذرة وكان آخرها الثورة العلمية والتكنولوجية والخاصة بالتطورات المذهلة في عالم الكمبيوتر أما المجال الأخر في هذه الثورة فهو التطورات المثيرة في تكنولوجيا المعلومات والاتصالات والتي تتيح للأفراد والدول والمجتمعات للإرتباط بعدد لا يحصى من الوسائل التي تترنح بين الكابلات الضوئية والمحطات الفضائية والإذاعية التي تبث برامجها المختلفة في جميع أرجاء المعمورة.

بالإضافة على أجهزة الكمبيوتر¹³ والبريد الإلكتروني وشبكات الإنترنت التي تربط العالم بتكاليف أقل وبوضوح أكثر على مدار الساعة.

ولقد تحولت هذه التكنولوجيا إلى أهم مصدر من مصادر الثورة أو قوة من القوى الإجتماعية والسياسية والثقافية الكاسحة في عالم اليوم.

3- موقف الإسلام من العملة:

الإسلام منهج عالمي جاء لهداية البشرية في كافة مجالات الحياة وهو رسالة شاملة وعملية تراعي الظروف الإنسانية والظروف الموجودة¹⁴ بين الشعوب دون إلغاء للعالم من عاداتها وأفكارها بل تطويره والإرتقاء إلى المستوى السامي الذي جاء الإسلام ليرفع البشرية إليه ، ولو كانت العملة حسب دعواها الظاهرية وأنها تسعى إلى تقارب الشعوب على أساس التعاون والسلام وإقامة العدل والدفاع عن حقوق الإنسان وحرية العبادة والتعبير وغيرها من المقاصد الحسنة التي جاء بها الإسلام وتدعو إليه الفطرة السليمة لما كان هناك إختلاف بين العملة والإسلام . حيث أن الإسلام هو الرسالة السماوية الخاتمة إلى الناس جميعا ، إن الإسلام يدعو العالم إلى أن يكون أسرة واحدة تتبادل المنافع فيما بينها « يا أيها الناس إن خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم » ولو كانت العملة كذلك فإنها لا تتعارض مع الإسلام.

والإسلام لكونه الرسالة الخاتمة ولكونه¹⁵ موجها للناس جميعا يدعو إلى العالمية من خلال الإيمان

بإله واحد وإعتبار البشرية أسرة واحدة خلقها الله لغرض العبادة.

أما العملة بعضها معنى القولية ووضع الناس في نموذج واحد واختصارهم على منهج واحد ، أما الإسلام فراعى الفروق الفردية الموجودة بين البشر وعاملهم على هذا الأساس. والخوف من العملة ليس مقصور¹⁶ على المسلمين وإنما يشمل كثيراً من الدول بما فيها بعض الدول الغربية المشاركة في صناعة العملة.

ويتأكد خوف المسلمين من العملة إذا تذكرنا أن الإسلام أصبح هدفاً للهجمات الغربية وحققاً لخصباً لتشويه وسائل الإعلام العالمية¹⁷ التي ربطت بالمسلمين والإسلام كل نقيصة مثل العنف والإرهاب والأصولية بمناسبة يتحدد موقف الإسلام من مختلف وقائع وظواهر هذا الوجود تفسيراً (بيان ماهيتها)

أو تقييماً (بيان الموقف العلمي تجاهها) في إطار أصول دينية أهمها¹⁸:

- جاء الإسلام لإصلاح البشر وتحقيق مصالحهم ومن ثم فإن المعيار الأساسي لتحديد الموقف القيمي/العلمي من أي أمر هو مصلحة للإنسان، ويعبر فقهاء الإسلام عن هذه الحقيقة بقولهم حيثما كانت المصلحة كان حكم الشرع. ومع أن مصلحة المسلم تراعى بوصفه إنساناً إلا أنه ليس بالضرورة أن تكون المصلحة المرعية قبل الإسلام هي تلك المصلحة التي يتمناها المسلمون.
- إن الإطلاق لله وحده ولا يكاد يسلم لأي شيء سواه فهذا الوجود الإطلاق خيراً أو شراً وعليه فإن الموقف التقييمي لأي أمر من منظور الإسلام يستدعي الموازنة والترجيح بين الإيجابيات والسلبيات وغالباً ما يرتبط الحكم النهائي بشروط أو أحكام ثانوية تهدف إلى تعظيم الإيجابيات والتخفيف من السلبيات أو - بتعبير الفقهاء - جلب المصالح ودفع المفاسد.
- العقل البشري المستهدي بالأصول الدينية وأصول الفقه (القانون) الإسلامي هو المناط به تحديد حكم كل ما لم يرد فيه حكم صريح.
- وإذا ما نظرنا للعملة والتي لم يرد فيها حكم صريح وتباينت إزاءها مواقف الكتاب من المسلمين وغيرهم ، في ضوء الأصول أعلاه والمقاربة التاريخية السابقة تتضح مسلمتان أساسيتان :
- ترافق العملة إيجابيات عبارة عن فوائد أو فرص للاستفادة (فوائد محتملة) كما ترافقها سلبيات عبارة عن أضرار أو أضرار محتملة. بيد أن من الخطأ إطلاق القول بأن العملة هي السبب الوحيد لكل ما يرافقها من إيجابيات وسلبيات.

- لا تقتصر الإيجابيات ولا السلبات¹⁹ على طرف معين وإن كانت تتفاوت الحظوظ منها. وتعد طريقة تفاعل الطرف مع العولمة إحدى العوامل الأساسية في تحديد ما يليه من إيجابياتها وسلباتهما المحتملة.

وفي وضع كهذا فإن موقف الإسلام لا يكون الحكم بالحل أو الحرمة ولا الحكم بالرفض أو القبول المطلقين وإنما يتمثل في دعوة البشر إلى التعاون لمعالجة سلبيات العولمة وتعظيم إيجابياتها. ومن الواضح أن مثل هذا التعاون يتطلب قيام حوار جاد وجدي بين سائر الحضارات والأطراف الدولية المعنية ، وهو ما لن يتسنى بدون أن يتسامى أصحاب الحضارات على خبراتهم التاريخية السلبية ويتحرروا ، وخاصة أصحاب الحضارتين الغربية والإسلامية. من المبالغة في الخوف أو التوجس من الآخر.

ولو قدر لحركة العولمة أن²⁰ تتجاوز تحاورا إيجابيا مع الإسلام- وكذا مع الحضارات الأخرى- فإن من المؤمل فيه أن يحدث تكامل تستفيد منه البشرية جمعاء خاصة وأن الإسلام دين يتسم بتوجه عالمي تضامني بنيته بنية العولمة الجارية والتي تغطي عليها حاليا الصبغة الغربية ولكن يتميز عنها بعدالة مضمونة وسمو وإنسانية منطلقاته ودوافعه رفق ولين نهجه ووسائله. أن النظر لواقع الإسلام اليوم يتنازع رأيان:

- 1- يقول غير المسلمين أن هناك مشكلة²¹ ما تسبب في اضطراب علاقات الإسلام مع الأديان الأخرى وأن هذه المشكلة تعبر عن نفسها في سلسلة من الصراعات.
- 2- هو أن المسلمين يقولون أن الإسلام مستهدف وأن ثمة حربا معلنة ضده وأن الإسلام في دفاعه عن عقيدته وفي صموده أمام سلسلة من الهجمات التي يتعرض لها يجد نفسه في حالة صراع دائم.

فالمسلمون يرون أن المشكلة هي في نظرة الآخرين للإسلام ، وغير المسلمين يعتقدون بوجود المشكلة في الإسلام .

وعلى أي حال بدأ الحديث عن الإسلام بإعتباره ضمن دائرة صراع الحضارات وخاصة بعد انهيار الإتحاد السوفيتي ، فبعدما إنتهى العدو الأول للغرب الرأسمالي ما لبث أن وجد عدو جديد ألا وهو الإسلام وهذا يظهر في العديد من الكتابات بل وحتى في الخطابات الرسمية وغير الرسمية ويقول هنري كيسنجر في خطاب ألقاه أمام المؤتمر السنوي لغرفة التجارة الدولية بأن الجبهة الجديدة التي على الغرب مواجهتها هي العالم العربي الإسلامي بإعتبار هذا العالم هو العدو الجديد للغرب وهذا ما أكدّه الأمين العام للئاتو « حلف شمال الأطلسي » ويلي كلايس²² willy claes الذي وصف الأصولية

الإسلامية في خطاب رسمي له بأنها أعظم خطر راهن يواجه الحلف، من خلال التصريحين السابقين يتضح لنا أن الإسلام مستهدف خاصة أن بعض الجماعات والحركات التي تدعي الإسلام تتيح للغرب استهداف الإسلام. وعلى أي حال يجب أن نلاحظ أن العالم الإسلامي يعاني العديد من المشاكل والتي لا بد أن تتفاقم في ظل العولمة إذا لم يوجد حل لهذه المشاكل. حتى أننا نجد أن الأدبيات الغربية تجعل من الإسلام عدوا لها خاصة في ظل رأي هنتفون في «صراع الحضارات» حيث يقول: بأن النظام العالمي السابق كان يقوم على صراع بين ثلاث قوى رئيسية: الولايات المتحدة الأمريكية، الاتحاد السوفيتي والعالم الثالث، أما النظام العالمي الجديد نظام ما بعد الحرب الباردة فيقوم على الصراع بين ثماني حضارات²³ « الغربية واليابانية والكنوقشسية والأمريكية اللاتينية والأرثوذكسية والحضارة الإسلامية والحضارة الإفريقية»، وهو يرى أن حروب المستقبل سوف تجد جبهات لها في نقاط التماس بين الحضارات وخاصة مع الإسلام وكل واحدة من هذه الحضارات على حدى وهذه النقاط كما يراها: المواجهة بين الإسلام والغرب من خلال الصراع بين البوسنة وكل من كرواتيا وسلوفينيا، المواجهة بين الإسلام والأرثوذكسية من خلال الصراع بين البوسنة وصربيا وتركيا واليونان وبلغاريا، المواجهة بين الإسلام والهندوسية من خلال الصراع الهندي الباكستاني. بمعنى أن الغرب وضع الإسلام في موضع العدو والمواجهة. إن كتاب «أحجار على رقعة الشطرنج»²⁴ يقول مؤلفه أن الاتحاد السوفيتي سينهار وبعدها ستبحث الرأسمالية عن عدو لها وسيكون هو الإسلام، والذي سيعمل على محاربه هو الصهيونية، عبر دولتها إسرائيل. هل يستطيع الإسلام والدولة الإسلامية مواجهة العولمة؟ وكيف ستتعامل هذه الدول مع الإسلام ومع العولمة؟

وعلى أي حال يتضح لنا في هذا البحث أن الإسلام كحضارة جاء في مواجهة الحضارة الغربية والتي تتمثل بالعولمة نجد أن الإسلام يتعرض للكثير من التحديات والمصاعب فالعولمة كظاهرة حضارية تقودها الولايات المتحدة الأمريكية تواجه الإسلام كحضارة وكأفراد إذ أن هناك محاولات الغزو الثقافي عبر استغلال الجامعات والمعاهد فمثلا الجامعة الأمريكية في القاهرة طرحت الإستبيان التالي على أحد الطلبة الراغبين في الدراسة للحصول على درجة الماجستير:²⁵

ما رأيك في إذاعة أذان الصلاة في الإذاعة والتلفزيون؟

هل توافق على إذاعة بعض الأحاديث النبوية عقب الأذان؟

ماذا نسجي المقاتلين في الشيشان؟ هل هم مناضلون أم إرهابيون؟

في الحقيقة إنني أرى أن مثل هذه الأسئلة تحاول أن تضلل الفرد المسلم وتجعله يقع في دائرة الشك

ويبتعد عن الإسلام ديناً وحضارة ليقترّب أكثر نحو العولمة والحضارة الغربية.

وتبرز خطورة الغزو الثقافي للحضارة الإسلامية في أن أبناء هذه الحضارة لا يقرّون إذا ما قارناهم بأبناء الحضارة الغربية ، كما أن أبناء الحضارة الإسلامية يتلقون الأنباء والمعارف ولا يصدر عنها للعالم بعكس أبناء الحضارة الإسلامية في العصور السابقة الذين تتلمذ الغرب على أيديهم أما اليوم فنحن نتظر أن يأتي الخبر وتأتي المعلومة إلينا ولا نقوم بصنعها.

وبهذا يقول الدكتور السيد يسين²⁶ «إن الخصوصية الثقافية للمسلمين والعرب مهددة على اعتبارات المشكلة التي يثيرها الباحثون في العالم الثالث والذي يعد العالم الإسلامي من ضمنه هي أن تدفق الرسائل الإعلامية والثقافية يأتي من المراكز الرأسمالية الإعلامية بكل قوتها وقدراتها التكنولوجية ويصب في دول الأطراف كمجتمعات والتي تصبح في الواقع مجرد مستقبله لهذه الرسائل الإعلامية بكل ما فيها من قيم وهي في الغالب قيم سلبية مدمرة».

وإذا نظرنا لسلبيات العولمة إقتصادياً فإننا نجد أن إحدى آليات العولمة وهي التكنولوجيا قد أدت إلى البطالة وبالتالي أصبح عندنا حوالي مليار عاطل عن العمل في العالم منهم 15% من الجدل العربية الإسلامية²⁷.

وفي الحقيقة إن مخاطر العولمة ستزداد في ظل المجتمعات التي تعاني من الأمية والجهل فنسبة الأمية نسبة لا يستهان بها في العالم الإسلامي.

ونظراً لإعتبارات عديدة يجب الإنتقاء وأخذ الإيجابيات وترك السلبيات حيث ان المسلم مطالب بالبحث عن المفيد النافع وسياسة الإنتقاء هذه يمكن أن تنتج على المستوى الفردي وكذلك مستوى الأمة²⁸.

فعلى مستوى الأمة فخير حماية لها هو السعي الحثيث الجاد لكي تتعامل الدول الإسلامية في احتياجاتها البشرية والمادية بحيث لا تحتاج إلى غيرها إلا في المجالات الضرورية جداً ولا بد للعالم الإسلامي من موقف تكاملي ومنهج واع في إختيار²⁹ الحسنات ورفض السيئات وتقديم البديل الإسلامي الكامل الجدير بإنقاذ البشرية وأخذها للعالمية الربانية وإنقاذها من العولمة المادية من خلال نموذج يلفت الأنظار وجدير بالتطبيق والتنفيذ لتحقيق مصلحة الإنسان وربطه بخالق الكون. إن عالمية الدين الإسلامي وسرمدية حصن حصين له وحافز مهم لجعله سائداً دائماً وسيداً دوماً.

الهوامش:

- 1- أحمد سلامة ، العولمة والعروبة من الصراع الى الأمل دارالمكتبة الوطنية عمان 1999 ص 16
- 2- المرجع السابق نفسه ص 18
- 3- المرجع السابق نفسه ص 33
- 4- المرجع السابق نفسه ص 55
- 5- السيد ياسين، العولمة والطريق الثالث، ميريت للنشر القاهرة 1999 ص 75
- 6- المرجع السابق نفسه ص 80
- 7- المرجع السابق نفسه ص 90
- 8- المرجع السابق نفسه ص 92
- 9- المرجع السابق نفسه ص 95
- 10- أسامة الخولي، العرب والعولمة ، مركز دراسات الوحدة العربية بيروت 1998 ص 250
- 11- المرجع السابق نفسه ص 260
- 12- المرجع السابق نفسه ص 265
- 13- المرجع السابق نفسه ص 266
- 14- كامل أبو صقر، العولمة ، دارالسلام بيروت 2000 ص 19
- 15- المرجع السابق نفسه ص 35
- 16- المرجع السابق نفسه ص 36
- 17- أحمد سلامة، العولمة والعروبة من الصراع إلى الأمل دائرة المكتبة الوطنية عمان 1999 ص 40
- 18- المرجع السابق نفسه ص 65
- 19- المرجع السابق نفسه ص 67
- 20- المرجع السابق نفسه ص 72
- 21- السيد ياسين ، الحوار الحضاري في عصر العولمة دار النهضة للطباعة والنشر القاهرة 2002 ص 33
- 22- المرجع السابق نفسه ص 40
- 23- المرجع السابق نفسه ص 45
- 24- المرجع السابق نفسه ص 50
- 25- المرجع السابق نفسه ص 53
- 26- المرجع السابق نفسه ص 54

- 27- أحمد كامل محمود ، العولمة وتجليات الحضارة دار النهضة للنشر القاهرة 2001 ص 44
- 28- عبد الرشيد سالم الحكيم ، العولمة والكون دار الكتاب الحديث مسقط عمان 2003 ص 44
- 29- أحمد منصور عبد الغني ، العولمة والعقلانية دار النهضة للنشر، الكويت 2002 ص 44